

ملاحم التفكير اللساني عند ابن جني

الأستاذ غويرق حميد - جامعة عمار ثلجي - الأغواط - الجزائر

ملخص :

لقد فطن علماء العربية الأولون إلى أهمية اللغة ودورها في الحياة الاجتماعية، فانكبوا على دراستها وتبيان مكنوناتها حتى إنه وصل إلينا الكثير من التأليف النفسية ، التي تثبت عظمة ما توصلوا إليه من النظر الثاقب والفكر السديد ، ومصداق ذلك ما نجد عند الخليل وتلميذه سيبيويه ، ومن تبعهما من علماء العربية .

وقد برز في القرن الرابع الهجري أسماء فذة كأبي علي الفارسي وابن فارس وابن جني وغيرهم .. هذا الأخير الذي كان من أحذق أهل اللغة والأدب في زمانه وأعلمهم بالنحو والتصريف ، ويعد من أعظم العلماء الذي قدموا نموذجاً لمباحث اللغة في التراث العربي المعرفي فبدت اللغة العربية في خصائصه لغة لا تدانيها لغة لما اشتملت عليه من سمات حسن تصريف الكلام ، والإبانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء. وكتابه الخصائص أشهر من أن يوضح فهو يحوي من أسرار العربية وميزاتها ما يسعف الباحث والمتعلم من قضايا اللغة وأسرارها ، وما لاغنى لواحد عنه ، وابن جني في ثنايا كتابه يقول : " فإن هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوه الإعراب ، وإنما مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام، وكيف بديء، وإلام نحأ، وهو كتاب يساهم ذووا النظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأديين التأمل له ، والبحث عن مستودعه ، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ، ويأنس به ليكون له بسهم منه وحصه . " 1

إن موضوع التفكير اللغوي لدى ابن جني يمثل هوية ثقافية للفكر التراثي العربي بما أنجزه وحققه من ثمرات علمية ذات قيمة كبيرة، وقد قدم دراسات كانت ولا زالت لها فاعليتها في الثقافة اللغوية والنشاط الفكري، سواء كان ذلك على

المستوى النظري المنهجي أو على المستوى الإجرائي التطبيقي ، وتتوافق و الدرس اللغوي الحديث. فابن جني يعتبر حامل لواء الريادة في شق الطريق العلمي لتعريف اللغة بشكل ملفت للانتباه وبعقلية قلما وجدت عند غيره ، فهو برأيه هذا كان له الأثر البالغ والصدى الموافق لما بلغه الدرس اللغوي الحديث ، إلى جانب علم اللسان أو اللسانيات (Linguistique) وهو المقرر لسوابق هذا التعريف العلمي للغة ، الذي امتدت أسهمه لتعانق- في الكثير من النقاط - صرح اللسانيات الحديثة وذلك حينما قال " اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " . 2.

ويمكن أن نذكر قول الدكتور عبده الراجحي الذي يشهد لأي الفتح بسبقه غيره بهذا التعريف الدقيق : " ونظن أن أول من عرف اللغة هو ابن جني في كتاب الخصائص ، ومن الملاحظ أن ابن فارس والثعالبي لم يعرفا اللغة فيما كتبا عن فقه اللغة" . 3 . ويضيف : " ومع أن ابن جني هو أول من عرف باللغة فيما نظن ، فإن تعريفه بما يشير دهشة الباحثين البعيدين عن تطور الحياة العلمية العربية ، لأنه يقترب اقترابا شديدا من كثير من تعريفات المحدثين ولأنه يشمل جوانب التعريف التي عرضها علم اللغة في العصر الحديث " . 4.

إن مفهوم اللغة الذي جاء به ابن جني يكاد يكون على نحو قريب مما توصل إليه اللسانيون المحدثون ويلتقي في كثير من النقاط حول نظرية علم اللسان الحديث (اللسانيات الحديثة) . فهو يرى أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهذا التعريف يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة ، ويتفق مع كثير من التعريفات الحديثة لها . ويشتمل على أربعة جوانب يستحق كل جانب منها شيئا من التفصيل ، وهذه الجوانب هي :

1 - اللغة أصوات (الجانب الصوتي للغة) .

2 _ يعبر بها (الجانب التعبيري) .

3 _ كل قوم (الجانب الاجتماعي) .

4 _ عن أغراضهم (الجانب الوظيفي) .

الجانب الصوتي للغة :

في تعريفه للغة يقول ابن جني : " حد اللغة أصوات ... " . لم يقل أن اللغة ألفاظ أو كلمات ولكنه قال "أصوات" وأصوات أشمل وأعم وهو المصطلح المستخدم في علم اللغة الحديث، وعلم الأصوات phonétique من أحدث علوم اللغة . و الفونيم phoneme هو أصغر وحدة صوتية، فالحرف فونيم . إن من الحقائق الأساسية التي أكدها علم اللغة الحديث ، الطبيعة الصوتية للغة، فالصوت اللغوي هو الصورة الحية للغة وليست الكتابة ، "وابن جني يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة " 5، على أن الكتابة في أحسن أحوالها محاولة التعبير عن اللغة في واقعها الصوتي .

ولما كانت اللغة ظاهرة إنسانية ، فالأصوات المقصودة هنا هو الصوت اللغوي، حيث يصدر من الإنسان نوعان من الأصوات :

صوت غريزي فطري : كالبكاء والضحك والوجع والأنين .

صوت عرفي اصطلاحي : مكتسب وهو الصوت اللغوي .

فالطفل حينما يولد يبكي فطريا لا يحتاج لمن يعلمه طريقة البكاء، ولا صوت البكاء، وكذلك الضحك والتوجع والأنين.. بينما أصوات اللغة تعلم وتكتسب من المجتمع الذي يعيش فيه . وتوضح التعريفات الحديثة للغة أن اللغة نظام من الأصوات والرموز اللغوية التي يتعامل من خلالها البشر فيما بينهم ويتبادلون الأخبار والخبرات والأحاسيس ، واللغة أكثر نظم الرموز التي يتعامل بها البشر تركيبيا وتعقيدا فإشارات المرور مثلا رموز ضوئية محددة وبسيطة ، وكذلك الصيحات والرقصات التي تؤديها الطيور والحشرات كالنحل هي رموز بسيطة ، إلا أن

الإنسان المخلوق الوحيد الذي له القدرة على استعمال اللغة والتعامل بها رغم تركيبها وتعقيدها . والأصوات اللغوية التي يستعملها الإنسان الصادرة عن جهاز نطقه محدودة ، كما أن لغات العالم تشترك في غالب الأصوات وأكبر كم من الأصوات في أي لغة لا تزيد عن أربعين صوتا ، وبالرغم من محدوديتها هذه إلا أنها تتخذ لها تراكيب معينة وأنساق كثيرة ، فتكون آلاف الكلمات في اللغة الواحدة ، بل الملايين وتتخذ الكلمات أيضا لها تراكيب وأنساق تضبطها خاصية اللغة ، فتشكل مالا حصر له من الجمل ، وتعبّر بذلك عن الحضارة الإنسانية والفكر الإنساني ، لذا فاللغة الإنسانية تختلف عن نظم الاتصال البسيطة الأخرى الموجودة عند الإنسان وعند الحيوان في أن اللغة الإنسانية نظام مركب معقد من الرموز .

إن كون اللغة على النحو التفكيري الذي نادى به ابن جني في أن اللغة أصوات ، موقف قائم على تحديد تراثي خاص بابن جني خلال القرن الرابع الهجري لا نكاد نعرف له مثيلا في الدرس اللساني الحديث ، وهذا بدلائل ما أقره المحدثون اللغويون واللسانيون في نظرياتهم وتجاربهم الوصفية والتطبيقية " 6

والعلة فيما ذكره ابن جني عن اللغة المنطوقة عوضا عن اللغة المكتوبة ، تتضح في سلوك علماء وفقهاء اللغة على وجه لم يكونوا يتناولون هذه القضية (اللغة) باعتبارها نمطا خطيا أو نظاما كتابيا على خلاف المحدثين الذين نظروا إليها نظرة نطقية سمعية ، وأخرى خطية كتابية " 7

ونلتمس خصائص التقاطع والتباين بين تفكير ابن جني ومناهج اللسانيات الحديثة استنادا إلى تقديم بعض التعاريف الحديثة لإجلاء أوجه المقارنة بين التفكيرين. فاللغة كما جاء في دائرة المعارف البريطانية: "نظام من الرموز الصوتية " 8. وفي دائرة المعارف الأمريكية هي " نظام من العلامات الصوتية الاصطلاحية "

9.

كما أنها عند يسيرسن " عن طريق الفم والأذن وليس عن طريق القلم والعين " 10. أما فندريس فيرى أن " أعم تعريف يمكن أن يعرف به الكلام أنه نظام من العلامات " وفي ضوء هذا يجري مقارنة اللغة بالأنظمة الأخرى من العلامات، والتي يمكن أن تسمى لغات ، مثل لغة الفم ولغة اللمس ولغة البصر ، ويقرر على إثر ذلك أن هناك " لغة من بين مختلف اللغات الممكنة تطغى على جميع ما عداها بتنوع وسائل التعبير التي في طوقها ، وهي اللغة السمعية التي تسمى أيضا لغة الكلام أو اللغة المملوطة " . 11

الجانب الاجتماعي للغة :

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة البشر، وهي أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها كما أنها عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع . " فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية وهي بوصفها هذا تؤلف موضوعاً من موضوعات علم الاجتماع " 12 وبذلك يبدو أن رأي علماء المجتمع بتعريفها تعريفاً يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو ما تُعرف به اللغة عند الأقدمين من علماء العربية وهو أن اللغة : " أصوات يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم " 13 ولم يكن يُدرك قديماً ما للغة من صلات بالمجتمع الذي تعيش فيه ، أو يُعدّل من طرائقها ثم دُرِس على هذا الأساس فترة من الزمن بعد تقدّم العلوم الإنسانية وإدراك حقائق الظواهر الاجتماعية، ثم لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يُهتدى على إثر هذا الإدراك إلى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا اللغات وتاريخها وتطورها ، والحقيقة أن اللغة في عمومها ذات وظيفة هامة جداً ، يمكن أن تُلخّص في أمرين :

1- أمر فردي: هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .

2- أمر اجتماعي خالص: هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع و حياة اجتماعية، فأما بالنسبة للشق الأول من وظيفة اللغة فواضح أن طبيعة التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد بحيث لا يمكن أن يكون خبّازاً ونّساجاً وحدّاداً وصيّاداً في وقت واحد. ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في أموره على غيره من أصحاب هذه المهن وأن يتصل بهم؛ لقضاء حاجاته ولا سبيل إلى هذا الاتصال ، ولا إلى قضاء الحاجات إلا بواسطة التفاهم ولا بد للتفاهم من لغة . وأما الشق الثاني من وظيفة اللغة : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع و حياة اجتماعية فإن اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك والدين المشترك والأدب المشترك إذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة وكيف يمكن تصوّر تاريخ بلا لغة أو دين بلا لغة أو فكر بدونها أو إحساس لا يترجم عنه بها ، إن الشركة في كل أولئك هي الحياة الاجتماعية ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة .14

أثر اللغة في حياة الفرد والمجتمع :

لغة أثرُ فعّال في حياة الفرد ، فهي بالنسبة لــــه وسيلة الاتصال بغيره ، وعن طريق اتصاله بغيره يدرك الفرد أغراضه ويحصل على رغباته ، كما أنّها وسيلته التي يُعبّر بها عن آماله وآلامه وعواطفه ، واللغة تهيئ للفرد فرصا كثيرة للانتفاع بأوقات فراغه ، وذلك عن طريق القراءة والمطالعة والاستمتاع بالمقروء ، فيغذي الفرد بذلك عواطفه ، وهي أدواته التي يقنع بها الفرد غيره في مجالات المناظرة والمناقشة ، كما أنّها أدواته التي ينصح بها الآخرين ويرشدهم وينشر بواسطتها المبادئ بينهم ويؤثر فيهم .15 واللغة بالنسبة للمجتمع وسيلة اجتماعية وأداة تفاهم وتعاون ، يستعملها المجتمع في أغراض شتى، في الخطب والإذاعة والشعر والمقالات

والصلاة والدعاء .. واللغة فوق ذلك كله من عوامل الوحدة السياسية للجماعات ، فالجماعة مهما اختلفت في الدين أو الجنس أو البيئة ، فإن كانت لغتها واحدة تظل متماسكة متحدة.16 كما أن اللغة تحفظ تراث المجتمع الثقافي والحضاري وتنقله عبر الأزمان من جيل إلى جيل ، كما أنها رمز المجتمع تدل عليه وتعكس صورته الثقافية والأخلاقية وصفاته المختلفة فالألفاظ بدلالاتها تدل على مستوى المجتمع.

اللغة والجنس :

رأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها، ومجاراتها للحياة والأحداث ، باختلاف الناطقين بها من الشعوب حسب طبيعتهم ، فلغات مجعدي الشعر تختلف عن لغات مُلّس الشعر ، ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس .17 وارتبط ذلك بالحديث عن طبيعة اللغات المختلفة -على حد تعبيرهم - فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وتفقد إلى الحيوية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت له اللغات الأوربية الراقية .18 يقول محمود السمران "لقد أغرى بعض اللغويين بإيجاد روابط بين اللغة والجنس ، واستغلت بعض المذاهب السياسية التعصب للجنس والزهو بلغته واتخذتها ذريعة لفرض سلطاتها على شعوب تنتمي إلى أجناس أدنى من لغتهم فالعالم فردريك مولر قد أنشأ كتابه على أساس من هذه الفكرة، فصنف اللغات طبقاً للميزات الإتنولوجية ، فاستعرض لغات الشعوب المجددة الشعر واحدة فواحدة ، ثم لغات الشعوب الناعمة الشعر." 19 والحق أنه لا علاقة ضرورية بين المميزات الجنسية كلون الشعر وتبعده أو نعومته ، ولون العينين وهيئتهما ، ولون البشرة ، وشكل الرأس ، وما إلى ذلك

وبين قدرة الناس على التفكير، أو على تعلم لغة من اللغات ، ومن الأدلة القريية الحاكمة بفساد هذا الربط بين اللغة والجنس أن من اللغات ما يستفيض حتى يكون لغات جماعات تنتمي إلى أجناس مختلفة ، وهذه الجماعات على اختلافها في الجنس تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها، وذلك شأن الإنجليزية والعربية مثلا . والزنجي والإفريقي الذي يُربى منذ طفولته الباكرة في إنجلترا في ظروف واحدة مع الأطفال الإنجليزي يتكلم الإنجليزية كما يتكلمها أبناؤها .20 وعلماء الانثربولوجيا يعثرون على جماجم بشرية يحددون أنواعها ، المستدير والمستطيل لكنهم بلا شك عاجزون عن معرفة لغات أصحابها. أما الحديث عن اللغات المختلفة واللغات الراقية فهو غير موضوعي ، فاللغات التي تتسم بسمات (بدائية) يمكن أن تتحول إلى راقية لو انفتح المجال أمامها ، وأتيحت لها ظروف التغيير تبعاً للتحويلات الاجتماعية .

اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره في اللغة فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراض زراعية ومدن صناعية . فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، فالصحراوي يحتاج إلى صوت مرتفع غليظ يسمع في الفراغ الذي أمامه ، ويصل إلى ما يريد من أماكن وليست الآية الكريمة الرابعة من سورة الحجرات إلا دليل على ارتفاع صوت البدو . يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ ولكن بعد أن تحضّر البدو وسكنوا المدن لاحظنا تغيراً في طرق التعبير ، وأداء الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلّت اللهجات ، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب.21 وللزمان تأثيره في اللغة كذلك، فالفرد يتأثر نطقه حسب سني عمره ، وانتقال اللغة من جيل

إلى جيل يترك أثره في أصوات اللغة ومفرداتها ونظمها وتراكيبها .22 ونلاحظ التغير الملموس في بعض أصوات العربية فالذال أصبحت قريية من الزاي فضلا عن فقدان الإعراب في العاميات وتقصير الحركات الطويلة أو حذفها وخلق حركات غريبة .

اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالنظم الاجتماعية التي تكون عليها الأمة فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والدين ، فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات والتعبيرات تتمشى مع شكل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية . فعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا مثلا الألفاظ المستعملة في عصر الإقطاع ، وعصر ما بعد الثورة في أوروبا ، لوجدنا أن مدلول كلمة "سيد" قد تغير . وللحياة الاقتصادية كذلك طرائقها ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعّالة لها ، توجهها كما تشاء، فالتعامل الاقتصادي له دعاياته ووسائله في أسواق العرض والطلب، وللتجار وأصحاب الحرف مفاهيم خاصة تتمشى مع ميولهم وأهوائهم ، ومصالحهم، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .23 وللدين كذلك أثره الفعّال في اللغة، فالمجتمع في طقوسه الدينية، ومشاعره يسلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها وتراكيبها وطرائقها التعبيرية، فلننظر إلى لغة الأذان والصلاة ، والخطب الدينية والمدائح النبوية . ونستطيع أن نلمس في لغة الأساليب الدينية ميلا إلى الإيقاعات الصوتية، والفواصل، وتتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .²⁴

اللياقة اللغوية " الكلام الحرام " :

من الملاحظ أن كثيراً من المجتمعات تشترك في تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة كالموت ، والأمراض الخطيرة والخبيثة والأرواح لا سيما الشريرة وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الإنساني . فكثير من الشعوب تستعمل عبارات لبقّة بارعة تجنباً لاستعمال الكلمتين البسيطتين يموت وبمرض، والعربية الفصحى في الوقت الحاضر وفي إعلانات النعي على وجه الخصوص تتجنب كلمة "مات" وتستعمل موضعها " توفي إلى رحمة الله " أو " توفاه الله " أو "أسلم الروح " أو " ذهب إلى جوار ربه "، والخوف من الجن والأرواح والشياطين والعفاريث غالب على معظم الشعوب . والمصريون لا سيما النساء يدلون على الجن بـ"الأسياذ"وأحيانا بـ"الأخوات " إشارة إلى الاعتقاد السائد بأن لكل من الإنس أخا من الجن كما يشيرون إلى "العفاريث" أحيانا ،بـ"بسم الله الرحمن الرحيم " . والأمراض المعدية أو التي لا يرجى شفاؤها يعبر عنها بـ "الله يحمينا" ، "العياذ بالله " . فبدلاً من أن نقول فلان مصاب بالسرطان ،نقول " فلان مصاب بـ : الله يحمينا ...

الجانب الوظيفي للغة :

يتفق جمهور علماء اللغة المحدثين على أن وظيفة اللغة هي "التعبير أو التواصل أو التفاهم"، مع أن بعضهم يرفض تقييد وظيفة اللغة بالتعبير أو التواصل؛ فالتواصل إحدى وظائفها إلا أنه ليس الوظيفة الرئيسية. وقد حاول "هاليداي" halliday تقديم حصر بأهم وظائف اللغة، فتمخضت محاولاته عن الوظائف الآتية:

1) **الوظيفة النفعية (الوسيلية):** وهذه الوظيفة هي التي يطلق عليها "أنا أريد"، فاللغة تسمح لمستخدميها منذ طفولتهم المبكرة أن يشبعوا حاجاتهم، وأن يعبروا عن رغباتهم.

2) **الوظيفة التنظيمية:** وهي تعرف باسم وظيفة "افعل كذا، ولا تفعل كذا" من خلال اللغة يستطيع الفرد أن يتحكم في سلوك الآخرين لتنفيذ المطالب أو النهي، وكذا اللافئات التي نقرؤها، وما تحمل من توجيهات وإرشادات.

3) **الوظيفة التفاعلية:** وهي وظيفة "أنا وأنت" تستخدم اللغة للتفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الفكاهة من أسر جماعته، فنستخدم اللغة في المناسبات، والاحترام، والتأدب مع الآخرين.

4) **الوظيفة الشخصية:** من خلال اللغة يستطيع الفرد أن يعبر عن رؤاه الفريدة، ومشاعره واتجاهاته نحو موضوعات كثيرة، وبالتالي يثبت هويته وكيانه الشخصي، ويقدم أفكاره للآخرين.

5) **الوظيفة الاستكشافية:** وهي التي تسمى الوظيفة "الاستفهامية". بمعنى أنه يسأل عن الجوانب التي لا يعرفها في البيئة المحيطة به حتى يستكمل النقص عن هذه البيئة.

6) **الوظيفة التخيلية:** تتمثل فيما ينسجه من أشعار في قوالب لغوية، كما يستخدمها الإنسان للترويح، أو لشحذ الهمة والتغلب على صعوبة العمل، وإضفاء روح الجماعة، كما هو الحال في الأغاني والأهازيج الشعبية.

7) **الوظيفة الإخبارية (الإعلامية):** باللغة يستطيع الفرد أن يتقل معلومات جديدة ومتنوعة إلى أقرانه، بل ينقل المعلومات والخبرات إلى الأجيال المتعاقبة، وإلى أجزاء

متفرقة من الكرة الأرضية، خصوصاً بعد الثورة التكنولوجية الهائلة. ويمكن أن تمتد هذه الوظيفة لتصبح وظيفة تأثيرية إقناعية، لحث الجمهور على الإقبال على سلعة معينة، أو العدول عن نمط سلوكي غير محبب.

(8) الوظيفة الرمزية: يرى البعض أن ألفاظ اللغة تمثل رموزاً تشير إلى الموجودات في العالم الخارجي، وبالتالي فإن اللغة تخدم كوظيفة رمزية²⁵.

واللغة كالكائن الحيّ، تنمو وتترعرع وتشب وتشيخ، وقد تموت إذا لم تتوفر لها عوامل الديمومة والاستمرار، مرهونة في ذلك بتنوع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية، فعندما يتطور المجتمع حضارياً وإنتاجياً تتطور اللغة، والعكس.

الجانب التعبيري للغة :

لا شك أن وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير عن الأحاسيس وتبليغ الأفكار من المتكلم إلى المخاطب ، فاللغة بهذا الاعتبار وسيلة للتفاهم بين البشر ، وأداة لا غنى عنها للتعامل بها في حياتهم .

ولقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة أو فرع من علم النفس ، أو فرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية... الخ . وخلاصة ما أدت إليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار... الخ . ويقول (هنري سويت) " إن اللغة هي تعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات " .²⁶

ونجد أن ساپير Sapir يذهب نفس المذهب إذ يقول : " اللغة وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية إطلاقاً لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية " . 27

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون إلى اللغة هذه النظرة ولكن " الأفكار " و " الانفعالات " و " العواطف " والرغبات ... الخ . مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية في أصلها ولو جاز أن " الكلام " في بعض استعمالاته تعبير عن " الفكر " فإنه ليس كذلك في جميع استعمالاته أو في معظمها فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار في لغة التحيات ولغة التأدب ولغة التدريب الرياضي و العسكري مثلاً .

إن أصحاب هذه النظرية في اللغة على اختلافهم يرون أن : الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة من " الاتصال " أو " التوصل " أو " النقل " أو " التعبير عن طريق الأصوات الكلامية " 28 ، وان ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات أو الفكر بوجه عام . وأقول على أن حصر جميع وظائف اللغة في غرض واحد لا يخلو من مغالاة وسنجد أن التعبير يتخذوا عدة صور ، ولا يمكن أن نطلق على بعضها تسمية اللغة على سبيل المجاز وسنجد أن التبليغ مفهوم أعم من اللغة إذ إنه يمكن أن يحدث بعدة طرق منها اللغة وسنجد في السلوك اللغوي للإنسان ما لا يمكن أن يندرج في الوظيفة السالفة الذكر فهناك مثلاً المونولوج أو الحديث الداخلي فليس القصد منه التبليغ بل هو تنفيس عن الكرب، إلا إذا افترضنا - على غرار ما فعل ساپير - أن " المتكلم والسامع مندجمان في شخص واحد ويمكن أن يقال عنه بأن ينقل الأفكار إلى نفسه . 29 ومما لا أثر فيه للتبليغ أيضاً ما يسمى بالمناجاة من صلاة ودعاء واستغفار وذكر الله عز وجل،

وما إلى ذلك فلا يوجد هنا تبليغ وليس له إلا طرف واحد ولكن نستطيع القول بأن الحوار حاصل بين العبد وخالقه .

الهوامش :

- 1- ابن جني، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية بمصر ، 1952م ، 2/67 .
الخصائص 1/30 .
- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية ، دارالمعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1988، ص 60
4- المرجع نفسه ، ص 60 .
- 5- فهمي حجازي ، مدخل إلى علم اللغة ، دار قباء للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ص : 10 .
- 6- ينظر : فقه اللغة للراجحي ، ص : 59 – 99 . و الخصائص : 1 / 30 .
- 7- المرجع نفسه ص : 60 – 99 . و الخصائص : 1 / 30 .
- 8 - مادة (لغة) دائرة المعارف البريطانية (ENCYCLOPEDIA BRITANICA)
LANGUAGE)
- 9- مادة (لغة) في دائرة المعارف الأمريكية ، باب علم اللغة ENCYCLOPEDIA
AMERICANA (LANGUAGE , SCIENCE OF)
- 10la language ,it' s nature développement and origin Otto Jespersen ,
London ,1964 . p : 7 -15
- 11 - - فنديس ، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية
، 1950م ، ص : 31 – 32 .
- 12- علي عبد الواحد وافي ، اللغة والمجتمع ، ط2، دار إحياء الكتب العربية ، 1951م ، ص5

- 13- ابن جني، الخصائص ، 1 / 30 .
- 14- أحمد عبد الرحيم السايح ، اللغة الإنسانية ، مجلة اللسان العربي ، العدد الأول ، مجلد 9، 1972م ، ص:53.
- 15- سميح أبو مغلي ، كتابات في اللغة ، شركة الأصدقاء للطباعة، ص:9.
- 16- المرجع نفسه ، ص:9.
- 17- ينظر : فندريس ، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية ، 1950م، ص298.
- 18- المرجع نفسه ، ص : 299 .
- 19- محمود السعران ، اللغة والمجتمع رأي ومنهج ، ط2، الإسكندرية ، دار المعارف ، 1963م، ص : 66.
- 20- المرجع نفسه، ص : 67-68 .
- 21- علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة، ط4 ، القاهرة ، دار النهضة ، 1973 م، ص233-236 . 22- عبد الغفار حامد هلال ، اللغة بين الفرد والمجتمع ، مجلة اللسان العربي ، العدد 23 ، 1984م ، ص26 .
- 23 - محمود السعران ، اللغة والمجتمع ، ص99- 108 .
- 24- فندريس ، اللغة ، ص314-315 .
- 25- جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، عدد (145)، يناير 1990م، ص22 وما بعدها بتصرف.
- 26- نقلا عن : أحمد عبد الرحمن حماد ، العلاقة بين اللغة والفكر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1985 ، ص : 49 .
- 27 - ينظر : محمود السعران ، اللغة والمجتمع ، ص : 10 .
- 28 - ينظر : المرجع نفسه ، ص : 12 .
- 29- المرجع نفسه ، ص : 12 .

